الأَديبْ و المُفَكِّرْ الرَّاحِل
رَمَضان عَبْدِ الرَّحْمن لاَوَنْد
التراث وعلم صناعة الإنسان

الأستاذ أنيس منصور كاتب صحفي مرموق. ولذلك فهو لا يحتاج إلى تعريف لا سيما وأنه قد أصبح اليوم على رأس مجلة " أكتوبر" التي تصدر في القاهرة.

ولما كانت آراء الرجال توزن بقدر الحيز الذي يشغلونه في حياتهم اليومية فإن من الطبيعي جدا أن يكون رأي الأستاذ أنيس منصور وزن على قدر مكانته في عالم الصحافة وفي حدود الدور الذي يقوم به في أجهزة الإعلام العربي.

وبهذه المناسبة يجب أن نعترف بأن وزنه ثقل لأن الذين يكتب إليهم كثيرون كما أن الأجهزة الإعلامية الموضوعة تحت تصرفه ذات مدى بعيد يدخل في ذلك جهاز التليفزيون العربي نفسه.

****

وإذا كنا قد اقحمنا اسمه في مقدمة هذه المقالة وقدمناه بالفقرة السابقة فلأنه قد صدر عنه في مقابلة تلفزيونية ما يحرضنا على التعليق ويدفعنا إلى الحوار. لقد قال جوابا عن سؤال حول أعظم جندي في التاريخ : أن نابليون بونابرت هو أعظم جندي.

من الممكن أن يتردد هذا الرأي في أوساط المشاهدين للتلفزيون دون أن يحدث في النفوس أي نوع من أنواع الهزات النفسية بل ودون أن تحملق العيون دهشة أمامه . فقد تعود الناس في بلادنا أن يبحثوا أو يبحث لهم عن مواطن الامتياز والعبقرية في بلاد الحضارة الساخنة التي تفد إلينا نتاجاتها على صور مختلفة ابتداء من السلع الاستهلاكية حتى القيم والأفكار والنظم والمذاهب الفلسفية.

****

تم تحميل هذا الملف من مكتبة الأديب الراحل رمضان عبدالرحمن لاوند (سيّد المنابر) www.RamadanLawand.com
مع الاحتفاظ بكامل حقوق الطبع و الملكية الفكرية ،لمزيد من المعلومات يرجى مراسلتنا: info@RamadanLawand.com

الواقع أن سلسلة من الجهود الإعلامية الموجهة قد توصلت إلى تدجين مركز الاشعاع الثقافي في عالمنا العربي الى جانب الفصل بين الطبقات المثقفة والقاعدة العريضة لجهود الناس.

ولذلك أصبحت الحضارة الساخنة التي تحمل إلينا آخر صرخات الفكر والنظم والفنون والأزياء هي المصدر الطبيعي والصانع الوحيد للعبقريات الفذة في تاريخ البشرية.

في ضوء هذا الواقع يشعر رجل الإعلام العربي والمسلم بخاصية أن مهمته عسيرة جدا فهو لا يحاور عقولا ونفوسا عربية تستند إلى خلفيات ثقافية بل يحاور عقولا ونفوسا تستند إلى مسلمات وأفكار جاهزة غريبة عنه. إنه يشعر بأن مهمته ذات غرضين أساسيين. الغرض الأول هو تكوين أرضية ثقافية نابعة من تراث حضاري أصيل . والغرض الثاني هو مناقشة الأحداث والوقائع المتعاقبة مستندا إلى هذه الأرضية.

****

يجب أن نعترف أولا بأن الحضارة الساخنة التي تواجهنا في كل يوم وتحمل إلينا فيضا لا تنقطع موارده من الأفكار الجاهزة والأرقام والإحصاءات والصور والوجوه، جديرة بأن تخفي وراءها كل معالم الجهد البشري التي برزت في غير دنيا هذه الحضارة بالذات وفي مرحلة غير مرحلتها التاريخية. إن التقييم على الحضارات البشرية كلها غير الحضارة الساخنة الوافدة هو الحقيقة الإعلامية الواقعة التي لا نستطيع أن نتجاهلها ... وإذا كانت هناك حضارات بشرية قد رضيت خطة التقييم هذه واستكانت لها فإن حضارتنا العربية الاسلامية لا تستطيع أن ترضاها وأن تستكين لها لسبب بسيط وواضح. هو أنها تستوعب النشاط الفكري الروحي لعدد من الأمم تأتي في مقدمتها الأمة العربية بالذات.

****

واذا فنحن في صميم معركة غايتنا منها استعادة المبادرة والخروج من دائرة العتمة الإعلامية إلى دائرة الضوء. ولا سبيل إلى ذلك إلا بتكوين خلفية ثقافية تبرز بها معالم تراثنا الحضاري نستعيد معها احساسنا بالأصالة ونسترجع ثقتنا بأنفسنا ونخرج إلى النور كل الانجازات والقيم التي تميزت بها هذه المعالم.

****

والجدير بالذكر أن هذه المعركة هي بمثابة المخاض الذي يخرج به إلى الدنيا وليد جديد ويرافقه كل ما يرافق عملية الولادة من الآلام وحالات التشنج والخوف والقلق على المصير. وقد بدت لنا هذه الظاهرة بكامل خطورتها وخطرها في أثناء المحاورات التي تعاقبت في مؤتمر الرياض للإعلام الاسلامي والعلاقات الانسانية بين النظرية والتطبيق. وهو المؤتمر الذي انعقد بين ١٦ و ٢٥ من الشهر الماضي في العاصمة السعودية. لقد لاحظنا أن الذين ينتبهون إلى أهمية الخلفيات الثقافية ودورها في تحقيق إعلام اسلامي ناجح قليلون جداً. ولعلنا ألقينا بعض الضوء على هذه الخلفيات الثقافية في أعداد النهضة الثلاثة المتعاقبة قبل العدد السابق .

****

مرة أخرى نعود إلى الأستاذ أنيس منصور الذي قدم نابليون بونابرت على أساس أنه أعظم جندي في التاريخ البشري.

ومن الطبيعي أن يقول الأستاذ منصور مثل هذا الرأي لأن الأفكار والصور والوجوه الجاهزة في رأسه هي التي تحمل اليه من قبل سلع الحضارة الساخنة. والملاحظ أنها تبلغه بصورة منتظمة وبكميات كبيرة جدا بحيث لا يعود يرى إلاها ولا يشعر بوجود غير وجودها.

إنه لا يستطيع مثلا أن يتذكر وهو في صميم انبهاره بسلع هذه الحضارة بأن نابليون بونابرت قد ظهر في تاريخ أوروبا وكأنه البرق الخاطف . وهو لا يستطيع أن يذكر بأن أوروبا قد استعادت نظمها السابقة في الحلم رغم ظهور نابليون . وأن الدور الحضاري الذي قام به هذا الرجل العسكري يعتبر دورا ثانويا بالاضافة إلى الفشل الساحق الذي انتهت إليه مغامراته العسكرية.

****

ولو أننا عقدنا مقارنة موضوعية تلتزم بمقاييس العقل وتخضع لموحيات الضمير بين نابوليون بونابرت بكل ما قام به من انجازات عسكرية وحضارية وبين رجل كخالد بن الوليد أو أبي عبيده بن الجراح أو عقبة بن نافع أو حتى محمد بن القاسم بكل ما قام به كل منهم من انجازات عسكرية وحضارية، لتبين لنا الفارق الكبير بين رجل المغامرة العسكرية وبين رجل الفتوح في جانبيها العسكري والحضاري.

لو أردنا أن نقيم نابوليون بونابرت في حملاته العسكرية لما وسعنا بادىء الرأي الا أن نعترف بما كان يتصف به من روح المبادرة والديناميكية الخالصة بالإضافة إلى الذكاء المتوقد والقدرة النادرة على فهم الرجال .. لكن روح المغامرة عنده قد تغلبت على فكرة الفتوح المنظمة التي ترافقها رؤية جديرة بإعادة تشكيل البنية الحضارية عند الشعوب المغزوة. ولذلك فقد حرضت حملاته جملة من الدول والرجال على تنظيم تحالف واسع انتهى بالقضاء على مغامراته العسكرية واخراجه من الحياة العامة.

فاذا انتقلنا إلى تقييم خالد بن الوليد في حملاته العسكرية لوجب أن نعترف بالوقائع والحقائق التالية:

١) أن ابن الوليد لم يسجل في حياته العسكرية الحافلة بالأحداث الكبيرة هزيمة من طراز الهزيمة التي انهت حياة بونابرت العسكرية والسياسية.

٢) أن ابن الوليد لم يتصرف يوما من الأيام كمغامر عسكري بل كقائد متقيد برسالة دينية ملتزم بأخلاق معينة تم بها صقل روحه. وكان في حملاته حلقة في سلسلة من الحلقات تعاقب فيها عدد من الرجال قد لا يشبهونه في قوة الشخصية وبراعة تحريك المقاتلين لكنهم تميزوا جميعا بالعقيدة الرسالية وكشفوا عن الخصوبة الهائلة في يقظة الأمة التي حملت رسالة الاسلام ونهضت لمسؤوليات الفتوح العسكرية ، وجعلت هذه الفتوح شيئا في خدمة الرسالة لا وسيلة لاستغلالها. وهذا وحده هو الذي يفسر التحولات الحضارية الهائلة التي تمت بعد الفتوحات العسكرية الواسعة.

٣) أن ابن الوليد كان ككل عظماء الرجال الذين يقفون عند الحدود التي يعرفونها لأنفسهم فلا يتجاوزونها تحت تأثير المكابرة وعبادة الذات. كان يعلم أنه رجل مجاهد في أمة مجاهدة وأنه ليس استثناء من الآخرين. ولذلك كان يتصرف باعتباره رجلا عظيما في أمة عظيمة. يقف حيث يطلب اليه أن يقف ويقوم بالمهمة التي تحدد له. وهو حيث يكون ، في القمة أو القاعدة، الرجل نفسه لا يتردد في القيام بواجبه. وليس أدل على عظمته وامتيازه من أنه قال وقد أدهش تصرفه المتواضع بعض الناس بعد عزله عن قيادة الجيش اليروموك : (إنني أقاتل من أجل رب عمر لا من أجل عمر). وبهذه العبارة أغلق بابا عريضا للفتنة كان يمكن أن يفتح على مصراعيه.

ويزيد من أهمية هذه الظاهرة التي يطلق عليها اسم " خالد بن الوليد " أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قد كشف عن عميق ادراكه لدوافع النفس البشرية وما قد يرافقها من وسوسات الشيطان حين فسر قراره بعزل خالد بالقول : " أنه فعل هذا

خوفا عليه وعلى الناس من حوله . أي أن يفتتن بهم أو يفتتنوا به " أي أن عمر كان أمام مسؤوليتين : مسؤولية الحفاظ على وحدة الأمة وسلامة الدين الذي تحمله من ناحية، ومسؤولية الحفاظ على المكاسب الشخصية والمشروعة لخالد بن الوليد وامتيازاته لمصلحة الأمة وللحفاظ على سلامة الدعوة. وكان له من وعي الجميع وايمانهم ونجاح التربية النبوية لهم ما يستند إليه ويحتمي به . وبقى خالد في خدمة الجهاد الاسلامي حين تحول إلى مستشار لدى أمين الأمة أبي عبيدة ابن الجراح كما بقيت جبهة الاسلام موحدة في معركتها الفاصلة خلال فترة التحول من القرن الهجري الأول .

****

قد يزعم بعض الناس أن في توجيه الأحداث والوقائع على هذه الطريقة ما لا يتفق مع أمانة الرأي الموضوعي. والواقع أن هذا الزعم لا ينبع الا من سياسة التقييم الإعلامي التي تتناول تراثنا الإسلامي. كما أنه ينبع بالتالي من عقدة الشعور بالدونية أمام الرجال والأفكار والإنجازات التي تحاصرنا إعلاميا من كل مكان.

والحقيقة أن المواطن العربي يتعرض منذ عدد من الأجيال لعمليات ايحاء مكثفة تهدف عن طريق مباشر أو غير مباشر إلى تحقيق نوع من الانفصام التام بين حاضرنا وماضينا من ناحية .. وبين اطماحنا المستقبلية ووقائعنا التراثية من ناحية أخرى ... ونحن ندرك الصعوبة البالغة في تحرير عقولنا وقلوبنا من طغيان الحضارة الساخنة التي تغزونا بتكنولوجيتها المتطورة وبما يصاحب هذه التكنولوجيا من مذاهب الفكر وفنون الرأي وألوان النظم. لكن هذا لا يمنعنا من أن نبدأ رحلة الآلف ميل باجتياز الميل الذي هو أصعب أميال الرحلة فيما نعتقد.

إن ما نحتاج إليه هو تحقيق التحول النفسي الشامل الذي يختل به التوازن الثقافي القائم وهو أخطر جوانب المرحلة العربية المعاصرة. نحن في حاجة إلى رواد من الإعلاميين الشجعان الذين يتصفون بالصبر والتفكير المنظم والادراك العميق لدوافع النفس البشرية. ومن الضروري أن يسبق إعلامنا الثوري قدرتنا على تحقيق ثورتنا التكنولوجية الفتيان والفتيات الذين يؤمنون بضرورة التعبئة الشاملة في مواجهة الفيوض القادمة من الخارج.

والصعوبة في التعبئة الشاملة نابعة من خطة السباحة ضد التيار وضد ظاهرة البحث عن الحل الأسهل وتجنب متاعب الصبر وتحديات البناء. ولعل هذا هو ما قصد إليه الرسول صلى الله عليه وسلم حين قال لأصحابه وهو راجع من معركة بدر : لقد

عدنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ... قيل : قد عرفنا الجهاد الأصغر ، فما هو الجهاد الأكبر يا رسول الله ؟ قال : جهاد النفس.

المطلوب هو المزيد من الايمان بالرعاية الالهية.

والمزيد من الثقة بالمصير.

والمزيد من قوة الإرادة.

والمزيد من الاستعداد للتضحية.

والمزيد من العقل العلمي المنظم.

والمزيد من روح التحدي والاستجابة للتحديات الوافدة من الخارج.

ثم المزيد من الاعتزاز بقدراتنا القيادية ...

****

وأخيرا نتمنى على الاستاذ أنيس منصور وأمثاله ممن يتصدرون صفوف الإعلام العربي أن ينفضوا الغبار عن مادة التراث العربي الاسلامي لا ليستعملوا منه تقنيات الصناعات العصرية بل ليتعلموا منه علم صناعة الإنسان وهي أخطر صناعة تتولاها أمة تبني نهضتها على أسس سليمة صحيحة.